

تقديم

صلى بالبحث :

لم تكن صلى بأبي العلاء وليدة هذا البحث، ولكنها بدأت منذ أمد طويل، فمنذ حدائتي أخذت أجدول بين صفحات بعض ماكتب وما كُتب عنه. فشغفت بشخصيته وأحببت أدبه وفكره. استمر ولعى بأدب الرجل حتى التحقت بالدراسات العليا، فعقدت العزم على أن أساهم بجهدي المتواضع في التعريف بلغته ومحاولة كشف أسرار أسلوبه.

لا ريب أن ظروف المعرى الشخصية، وأوضاع القرنين الرابع والخامس الهجريين السياسية والاجتماعية والفكرية، قد أثرت كلها في تكوين شخصيته تأثيراً كبيراً انبثق عنه رد فعل قوى في نثره وشعره. فكان لذلك صدى تردده الأقسام والألسنة، قديماً وحديثاً. لقد أطال القدماء الحديث عن ذكائه ومقدرته اللغوية وقوة حافظته^(١)، ويكفى أن نلقى نظرة على كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء لنرى ذلك الاهتمام الذي حظى به منذ القديم، والذي لا تزال مظاهره بارزة إلى اليوم، فلا غرابة أن يقام في دمشق سنة ١٩٤٤ مهرجان للاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة المعرى^(٢)، كما لا غرابة أن تعد بالمئات الكتب والمقالات الصادرة عنه خلال القرن العشرين، وأن يهتم به الباحثون - عربياً ومستشرقين - فمن أجدر بذلك منه وهو الذي جمع برغم حرمانه من البصر، بين قوة الإبداع في الفن والتضلع في اللغة. وقلما اجتمعا لكاتب من الكتاب؟

لقد تناولت آثاره أقلام المحققين محققة تارة ومحللة جوانب شخصيته تارة أخرى، فجاءت مؤلفاتهم متنوعة المشارب والمذاهب، فكل واحد يجد فيها جانباً

(١) انظر مثلاً ما يرويه الثعالبي عن ذكائه: يتيمة الدهر، القاهرة ١٩٤٣م.

(٢) بهذه المناسبة نشر يوسف أسعد داغر كتاباً تحت عنوان، ٣٥٠ مصدراً في دراسة أبي العلاء ط. بيروت، دار صادر

على مستوى ثقافته وقدراته الإدراكية وعمق تجاربه؛ هكذا بوأه بعضهم مكاناً مرموقاً بين فلاسفة النظرة التشاؤمية، وحشره آخرون في زمرة الملاحدة، وتصدى غيرهم لرد الشبهات عنه، وجعله بعض النقاد الموحى لدانتى بالكوميديا الإلهية.

لقد تكاثرت الأقوال وتضاربت الآراء حول أبي العلاء كما تتضارب دائماً حول من تميزوا بنوع من النبوغ، فهذا طه حسين يقسو عليه تارة ويرأف به أخرى، وتجعل منه بنت الشاطي، وسليم الجندی المسلم الزاهد، وعميل أجمد الطرابلسي ليحجب إلى طلبته الاهتمام بأبي العلاء كمعلم لغوى بارع، ويتعرض عمر فروخ إلى دراسة الجانب الفلسفي عنده وإلى تحليل منهجه الأخلاقي ومواقفه من قضايا المجتمع، ويتمصص تيمور دور المدافع عن دين أبي العلاء وصدق إيمانه. ثم يأتي لويس عوض ليرمي بالزندقة والإلحاد، ويجرد «غفرانه» من كل جدة وطرافة، فيتصدي له محمود محمد شاكر ليخطئ أقواله، ويسفه آراءه دفاعاً عن أبي العلاء وعن العروبة والإسلام.

ومبلغ علمي ويحسى أن أحداً من هؤلاء وغيرهم ممن اهتموا بأثار أبي العلاء لم يتناول تحليل لغته، أي وسائله التعبيرية، ولكن انصبت جهودهم على الجانب الفني والأدبي، وعلى الآراء والمعتقدات.

لقد جذبني عنوان كتاب أستاذي أجمد الطرابلسي «النقد واللغة في رسالة الغفران»، ظلنا مني أن المؤلف الكريم عالج لغة رسالة الغفران ودرسها دراسة وصفية، فانكببت على قراءته بإمعان، فإذا المراد «باللغة» آراء المعري اللغوية التي تضمنتها الرسالة وليست لغة المعري بالذات.

لكل ذلك، ولأن أبا العلاء لا كغيره من الكتّاب، مكفوف البصر، يملى ولا يكتب، ولكون لغته تمثل شكلاً خاصاً في اللسان العربي، حيث هي لغة أعمى لم يباشر الكتابة، جاء هذا البحث، ليدرس لغة أبي العلاء في «رسالة الغفران».

ومرد اختياري للرسالة بالذات يرجع إلى أنها تجمع بين الطرافة في الموضوع والهيكل، وبين تنوع الأساليب وطرق التعبير عن مضامين شتى، وأنها بحق تعكس شخصية أبي العلاء الأعمى لغة وفكراً.

الصعوبات :

لا يخفى ما يعترض الدارس للغة نص ما من صعوبات وعقبات في اختيار منهج قويم، كفيل بأن يوفى الموضوع حقه، لقد حظيت المكتبات العربية بالكثير من المصنفات في مناهج البحث في اللغة، غير أنى لم أ حظ بالعثور على دراسة تطبيقية نموذجية تنير السبيل لمن يود القيام بدراسة لغوية لنص مكتوب. فكان الأمر بالنسبة لنص محلى مكتوب يتميز بصعوبات أكبر!

صعوبة أخرى واجهتها، ولعلها وليدة السابقة، تتمثل في أن مفهوم تحليل النص ودراسته دراسة لغوية لم تكن واضحة في ذهني، إذ لم يكن لدى من المعلومات ومن التجارب ما يمكنني من تناول الموضوع بسهولة ووضوح. كما لم يقدر لي أن أعمل في السنوات الأولى من حياة هذا البحث تحت إشراف يساعدني على تخطي أمثال تلك الصعوبات. لقد انكبت على قراءة ما استطعت الحصول عليه من كتب مناهج البحث في اللغة، مستعينة بما جاء عند بعض اللغويين الأوربيين، وحاولت جهد المستطاع أن أستفيد من هؤلاء وأولئك، فبدأ لي أن الأمر يقتضى دراسة مراتب (مستويات) لغة النص دراسة تعتمد على معطيات المعاجم وكتب قواعد اللغة والنحو، أى محاولة إثبات المعادلات والمناسبات التي توجد بين التراكيب والمقصود من استعمالها، ومدى نجاح الكاتب في اختيار ما يلائم منها للتأثير في النفس وإيصال ما يود تبليغه.

صعوبة ثالثة، صادفتها حين عزمت على دراسة الألفاظ الدخيلة التي وردت في لغة رسالة الغفران، ذلك أن المكتبات العربية لا تتوفر فيها معاجم تأصيلية تعنى بدراسة تطور الألفاظ، وبيان أصولها، وما يعترها من جراء تداخل اللغات، والتحول الزماني والجغرافي. . وأملى كبير في أن يعمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة على إخراج بقية منجزات « فيشر » المستشرق الألماني عن المعجم اللغوي والتاريخي، عسى أن يغطي بعض هذا النقص.^(١)

(١) صدر عن المجمع القسم الأول لمعجم فيشر، ويضم من أول حرف الهزمة إلى مادة «أبد».

تلك بعض الصعوبات التي اعترضتني في بداية دراستي للغة الغفران، وقد حاولت التغلب عليها في سنوات البحث الأولى بالرجوع إلى شتى المصادر، وبالتنقل بين آراء عدد من الأساتذة شرقاً وغرباً.

مصادر البحث :

اعتمدت هذه الدراسة على نص «رسالة الغفران» الذي قامت بتحقيقه الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطي) وهو نص تتجلى فيه الجهود القيمة التي بذلتها المحققة للمزيد من الضبط والتحرى.

وكانت مصادرى الأساسية في مجال الدراسات النحوية واللغوية : الكتاب لسيبويه، وألفية ابن مالك، ومغنى اللبيب لابن هشام، ومن المعاجم : الجمهرة لابن دريد، والقاموس المحيط للفيروزبادي، ولسان العرب لابن منظور، وفي دراسة الدخيل رجعت إلى المعرب للجواليقي وشفاء الغليل للخفاجي، كما استعنت بمؤلفات بعض المحدثين في هذا المجال مثل كتاب الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير، وغرائب اللغة العربية للأب نخلة اليسوعي، وكذا بعض القواميس المزدوجة اللغة مثل قاموس بلاشير.

منهج البحث :

«رسالة الغفران» ملّتقى لمعارف شتى، وصدى لتيارات فكرية ومناقشات لغوية وأدبية، الشيء الذي جعلها تختص بتعابير وألفاظ متميزة. وقد أثار انتباهي بصورة خاصة، ما بالجمل والتراكيب العلائقية من امتداد داخلي لعله وليد ما كان ينساق إليه المؤلف من استطرادات يسلم بعضها إلى بعض، أحياناً بعفوية، وأخرى عن قصد وسابق إصرار. لذا حاولت أن أركز جل اهتمامي على هذه الظاهرة، فقامت بدراسة التراكيب والجمل وتقصيت ميزاتها وخصائصها. وبما أن تلك التراكيب قوالب لمضامين مختلفة رأيت من واجبي أن أمهد بدراسة لمضمون رسالة الغفران والمنهج الذي احتواه، قبل أن أتناول دراسة التراكيب في مختلف صورها.

وأثار انتباهي أيضاً، ما بالرسالة من كلمات دخيلة وشروح لغوية لكثير من الكلمات.

هكذا فرضت طبيعة الغفران شكلاً ومضموناً، وطبيعة الدراسة اللغوية الوصفية، أن يأتي هذا البحث في مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة.

يتحدث المدخل، بإيجاز، عن أهم الأحداث التي أثرت في حياة أبي العلاء.

يتناول الباب الأول دراسات تمهيدية جاءت في فصلين:

الفصل الأول: المضمون في رسالة الغفران.

الفصل الثاني: المنهج في رسالة الغفران.

ويدرس الباب الثاني الخواص التركيبية للجمل في رسالة الغفران. وبما أن أكبر ظاهرة لغوية تميز لغة الغفران تتعلق بنوعية التراكيب، استغرق هذا الباب خمسة فصول جاءت كما يلي:

الفصل الأول: مدخل إلى دراسة الجملة في رسالة الغفران (ما الجملة؟).

الفصل الثاني: أشكال الجمل العلائية وخصائصها.

الفصل الثالث: الجمل الفعلية والجمل الاسمية.

الفصل الرابع: النعت في رسالة الغفران.

الفصل الخامس: الجمل الدعائية.

أما الباب الثالث فيتناول بعض قضايا المفردات، وينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الدخيل.

الفصل الثاني: طريقة شرح أبي العلاء للكلمات.

الفصل الثالث: نموذج من أدوات الربط التركيبية (أدوات الشرط).

وإن المنهج الوصفي الذي سار عليه البحث جعله يصطنع التطبيق والاستشهاد والإحصاء في جميع مراحل الدراسة. أحصيت - مثلاً - أشكال الجمل العلائية في شتى النماذج، وعدد النعوت الواقعة جملة أو مفرداً، وكذا عدد الجمل الدعائية. وفي مجال المفردات أحصيت عدد الكلمات الدخيلة، والكلمات التي تعرض

أبو العلاء لشرحها، وبعض أدوات الشرط هادفة بذلك إلى تلافى إلقاء الأحكام، وتقدير الخصائص دون ضبط ودقة. هكذا حاولت، ما أمكن، أن أعزز بنتائج الإحصاء، بعض الظواهر اللغوية التي تميز لغة الغفران والتي استخلصها البحث أثناء الدراسة.

وإنى لأرجو أن تكون هذه الجهود المتواضعة قد أسهمت في محاولة التعريف بلغة أبي العلاء، وإنها قطرة من بحر مما يجب أن تحظى به لغة مكفوفى البصر من اهتمام الدارسين اللغويين. كما أتمنى أن تنال قبولا، على ما بها من عثرات. وأسأل الله التوفيق.